القسم الأول

عَرض الدّعوةِ وأساليبها

من عهد نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وما بينهم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

- تعريف بالدعوة والدعاة
- مناهج أولى العزم فى دعوتهم
- دعوة سيدنا موسى عليه السلام
- دعوة سيدنا عيسى عليه السلام

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

تعريفٌ بالدّعوة والدّعاة

● **الدعوة لغة :** الصيحة والنداء .

واصطلاحًا : صرف أنظار الناس وعقولهم إلى عقيدة تفيدهم ، أو مصلحة تنفعهم ، وهى أيضًا ندبة لإنقاذ الناس من ضلالة كادوا يقعون فيها ، أو من مصيبة كادت تحدق بهم .

والدعاية : مرادفة للدعوة ، حيث وردت فى رسائل النبي ﷺ إلى الملوك في قوله : « أدعوك بدعاية الإسلام » .

وعلى الرغم مما يقصد بها اليوم من ترويج للباطل وتمويه للفاسد ، على سبيل قلب المعنى ، فإن الدعاية تظل قائمة على المعنى الأصلي الذي هو ترويج للحق ، وإذا استعملها الغربيون للباطل ، فلا يمنعنا ذلك أن نستعملها للحق .

ومن الكلمات التي ترادف الدعوة بفروق يسيرة ما يأتى :

١- الوعظ : وهو النصح بالخير على وجه يرق له قلب السامع ، وفي أسلوب يحمله على قبول الحق والعمل به .

٢- والإرشاد : هو هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، والحث على الخير .

٣- والتذكير : هو تعريف الناس بنعم الله ، وحثهم على الشكر على تلك النعم ، وتحذيرهم من مخالفة الله وذلك من مثل قوله : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ (إبراهيم:٥) ، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات:٥٥) .

٤- البشارة : هي الإخبار بما يدخل السرور والانشراح في الصدور .

والتبشير : وهو إخبار عن الجزاء والثواب ، ومثله الترغيب ، وهو الحث على ما يترتب عليه الثواب .

الإنذار : هو الإعلام مع التخويف ، وهو مقابل التبشير ، وهو أيضًا إخبار عن العقاب ، ومنه الترهيب وهو الترويع بما يترتب عليه العقاب .

وقد اعتاد المسلمون أن يستعملوا : الواعظ ، أو المرشد ، أو الداعية ، وكل كلمة منها عامة شاملة ، جامعة مانعة دون التبشير الذي يستعمله النصارى لدعاتهم ، فهو قاصر .

القصص : هو ذكر أخبار نبي أو صالح في أسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويوحي بالاقتداء بالصالح ، أو الاحتراز عن الطالح .

الحسبة : هي مراقبة الله في الأفعال والأقوال ، والقيام على الحدود المنهى عنها في الشرع ، تلك هي الكلمات التى ترادف الدعوة ، أما لوازمها فهي كالآتى :

الداعية : مبالغة من الداعى ، وهو من يمارس الدعوة إلى الله على الدوام ، أو إن شئت فقل : هو الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر .

الواعظ : هو المرشد الذي ينصح الناس بالموعظة الحسنة .

القصاص : هو القاص على الناس أخبار الأنبياء والصالحين على سبيل التأسى والاستئناس .

المبشر : هو الواعظ الذى يعظ الناس ويدعوهم باللطف والعطف ، وقد غلب استعمال اللفظ للدعاة النصرانيين ، ولا يجوز استعماله للمسلمين ، لأن التبشير جزء من كل ، ولا يغنى التبشير عن الإنذار ، ولا العكس ، وقد جرت عادة المولى تبارك وتعالى أن ينذر بعقابه على إثر التبشير بثوابه ، وأن يذكر الجنة تلو ذكر النار أو العكس ، وأن يصف الكافرين الطالحين ، قبل أو بعد وصف المؤمنين الصالحين ، وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن لا يكتفى بالبشارة دون النذارة ، فقال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ (الحجر:٤٩، ٥٠) .

المحتسب : هو المراقب على الأحكام والأوامر ، المأذون له بالمراقبة من قبل الأمير والإمام أو الوالى ، فهو بهذا ، شخص بين الجندي والشرطي ، يعاون القاضي أو الأمير على تنفيذ الأوامر .

● أوضاع الدعوة

الدعوة اسم جامع لرسالة الإسلام وتعاليمه من عقيدة وعبادات ومعاملات وشرائع وأحكام ، وهي أيضًا اسم جامع لسائر وسائل حمل الناس على هذه الرسالة وسائر أساليب التبليغ عن الله ورسوله على اختلاف مراحلها ، فبذلك تكون كلمة الدعوة للوسيلة والغاية معًا .

ولكن الأغلب أن تستعمل في المرحلة الأولى من مراحل التبليغ عن الله ورسله ، كما يلاحظ في سياق الآيات والأحاديث الآتية :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل:١٢٥) .

﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج:٦٧) .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (الشورى:١٥).

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ (آل عمران:١٠٤) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت:٣٣) .

أما الأحاديث فقد جاء في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك : «أدعوك بدعاية الإسلام : أسلم تسلم» .

ولما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له : «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى . . . » إلى آخر الحديث .

ويلاحظ من تلك الآيات والأحاديث أن الدعوة هي : نقطة البداية لأعمال التبليغ عن الله في أول مراحل هذا التبليغ .

أما الكلمات المرادفة لها ، فلا تستعمل إلا في مناسبات وأحوال تراعى فيها مقتضياتها .

● أوضاع الوعظ وأبعاده

الوعظ نصح وتعليم كالوصية ، وهي التى تلي الدعوة بعد قبولها ، ولعل في سورة لقمان ما يشرح معنى الوعظ إلى حد ما وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان:١٣،١٤) إلى قوله : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (لقمان:١٩) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢٧٥) .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٤) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ:٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾ (الشعراء:١٣٦) .

فيتبادر الفهم من هذه الآيات أن الوعظ إنما يكون بالدرجة الثانية من الدعوة فلا يوعظ الكافر ، وإنما يدعى إلى الإسلام ، فإذا أسلم وحسن إسلامه وعظ وانتفع بالموعظة ، ويناسب ذلك من الأحاديث ما رواه أبو داود عن العرباض ابن سارية رضي الله عنه قال : «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، قلنا يا رسول الله : كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد» .

● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالحسبة

ويلاحظ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يكون في الأوساط الإسلامية .

اقرأ معى هذه الآية : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ (آل عمران:١٠٤) وأمثالها كثير .

وفي الحديث : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم ، ومن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (متفق عليه) .

ويقول الأستاذ الدسوقي في كتاب «الحسبة» وهو يُعَرِّف المعروف والمنكر قال :

١- المعروف كل قول وفعل حَسَّنه الشارع وأمر به ، مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ وبناء المدارس وإصلاح أحوال الفرد والجماعة .

٢- المنكر كل فعل وقول قَبَّحه الشارع ونهى عنه ، مثل تعاطي المسكرات ، والكذب ، والخيانة ، والتطفيف في الكيل ، وترك الصلاة ، والفطر في رمضان بدون عذر .

٣- الحسبة هي القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصفة رسمية من الحكومة ، وقد ذكر الإمام الغزالي في كتاب الإحياء أن الحسبة عبارة شاملة للأمر بالمعروف وذكر لها شروطًا يجعلها شبيهة بالشرطة والولاية على المظالم .

وأركانها كالآتي :

أولاً : المحتسب : هو المكلف بالقيام على حدود الله ، بالإذن من الوالي أو الإمام .

ثانيًا : المحتسب فيه : هو كل منكر معلوم إنكاره موجود ظاهر للمحتسب من غير تجسس .

ثالثًا : المحتسب عليه : هو الإنسان ، البالغ ، العاقل ، الذي يتعاطى المنكر .

رابعًا : نفس الاحتساب : هو منع المنكر على ما يناسب الواقع من درجات المنع وهي : التعريف ، ثم النهي ، ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيير باليد ، ثم التهديد ، ثم الضرب ، ثم شهر السلاح ، ثم جمع الجنود والأعوان للجهاد .

وإذا نظرنا إلى شروط الحسبة وأوضاع الشرطة وجدناهما متقاربتين .

٤- والشرطة : هم الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالي في حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين .

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه أول من أدخل نظام العسس في الليل . وفي عهد سيدنا علي كرم الله وجهه تم تنظيم الشرطة في النهار ، وكانت تابعة للقضاء في أول الأمر تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، وإقامة الحدود ، ثم انفصلت عن القضاء أخيرًا .

● التعريف بالدين

الدين لغة : بمعنى الطاعة والانقياد .

واصطلاحًا : ما شرعه الله للناس من عبادات ومعاملات وأحكام .

ويختلف التعريف بالدين باختلاف تصور مفهومه عند المتدين أو الباحث المعرف ، فالدين عند غيرنا نحن المسلمين ـ هو ما يتقرب به الإنسان إلى ربه أو معبوده من رسوم وقرابين وطقوس وصلوات وعبادات ، وقد أطلق القرآن كلمة الدين على الصحيح والفاسد من الأديان بقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ٦) .

ولقد قسم علماء الإسلام جميع الأديان إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الأديان السماوية كاليهودية والنصرانية والإسلام .

الثاني : أشباه الأديان السماوية ، كالمجوسية والمانوية .

الثالث : الأديان الوضعية كالبوذية والهندوكية (البرهمية) .

ويفهم من كلام الشهرستاني في « الملل والنحل » أن الدين ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما كان مستفاداً من الأنبياء المبلغين عن الله ، ويسمى ملة .

الثاني : ما كان امتداداً من الملة ، ولكنه انحرف إلى الهوى ، ويسمى بدعة .

الثالث : ما كان مُخْتَرَعًا من الناس أساسًا ووضعًا ، ويسمى نِحْلَة .

وزاد الجرجاني في تعريفاته فقال :

« إن الدين : ما ينسب إلى الله ،

وإن الملة : ما ينسب إلى رسول الله ،

وإن المذهب : ما ينسب إلى مجتهد في الفروع ،

وإن البدعة : ما ينسب إلى صاحب الهوى » .

هذا هو مفهوم الدين عندنا نحن المسلمين .

أما عند غيرنا فقد فسد مفهوم الدين ، فصوروه على خلاف ما هو فى الحقيقة .

فالدين مثلاً عند اليهود هو : مجموعة أناشيد تقال كالصلوات ، وضحايا : قرابين يُتَقَرَّب بها إلى الله كالعبادات ، ووعود تحفظ وترتل كوصايا ربانية ، وتشريعات خاصة ببني إسرائيل ـ شعب الله المختار ـ في زعمهم .

ثم جمعيات سرية تنظم بمختلف الأسماء والعناوين ، كالماسونية والروتاري ، لإملاء البرتوكولات التي تنفذ بشتى الوسائل لإعادة مجد إسرائيل ، وإقامة دولة صهيونية في الأرض المقدسة .

أما الدين عند النصارى فهو مجموعة واجبات قولية وعملية ، يقوم بها الإنسان نحو الله ، ونحو نفسه ، ونحو الجماعة ، سواء أكانت هذه الواجبات من اختياره أو اختيار القساوسة والبابوات أو أنبياء بني إسرائيل .

والواقع أنهم لا يلتزمون أوامر دينهم من الله ، بل كل ما رآه رجال الدين مناسبًا للدين فهو عندهم دين ، وما ربطه القساوسة في الأرض فهو مربوط في نظرهم في السماء .

● الدين عند فلاسفة الأديان

أثبت الباحثون عن الأديان أن الاعتقاد بوجود الخالق والافتقار إليه عند الضرورة حقيقة كامنة في النفس البشرية على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

وقال المحققون : إن التدين غريزة من الغرائز التي امتاز بها الإنسان عن سائر الحيوان ، ولا تزال هذه الغريزة تلاحق الإنسان وتلازمه ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح ، وسوف تزداد هذه الغرائز قوة مع علو مدارك الإنسان ومعارفه(١) وقد سبق القرآن إلى إثبات هذه الحقيقة في آية كريمة تقول : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠).

---

(١) محمد فريد وجدي ـ في دائرة المعارف ـ مادة : دين .

وفي الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[1].

أما الباحثون في الأديان على مذهب التطور ، فقد ضلوا ضلالاً بعيدًا حيث زعموا أن التدين موضوع إنسانى ، ليس مشروعًا سماويًّا ، وقالوا : إن عبادة المظاهر الطبيعية ـ العلوية منها والسفلية ـ هي منشأ الأديان كلها ، على نحو ما شاهدوه من ديانة الأقوام البدائية .

وآخرون قالوا : بأن عبادة أرواح الموتى هي مبدأ الأديان كلها .

وفريق ثالث قال : بأن عبادة الحيوانات والنباتات والجمادات هي محتد الأديان .

وقالوا : إن الدين قد نشأ في هذه الصورة البدائية ، ثم ارتقى إلى عبادة الله الخالق الواحد عندما نضج العقل البشري .

وأسوأ من ذلك ما قالوا : إن الإنسان سوف ينتهي يومًا إلى نبذ التدين وراءه ظهريًّا ، عندما يرتقي إلى الإنسان الأعلى[2] .

ولقد انتشرت هذه النظرية بعد انتشار نظرية داروين : منذ القرن التاسع عشر الميلادي كما يأتي بيانها قريبًا .

ومن ثَمَّ قسم العلماء الطبيعيون بواعث التدين إلى ثلاثة أقسام ، وانتسب كل منهم إلى ما يرتضيه من رأي ونظرية ، كالآتي :

القسم الأول : هم الذين اعتقدوا بأن أصل التدين هو الاعتقاد بقوة أرواح الموتى لإعانة الأحياء ، أو الاعتقاد بعودة الموتى إلى الحياة من جديد ـ على مذهب تناسخ الأرواح عند الهنود وقدماء المصريين ـ وسمى أصحاب هذه العقيدة بأصحاب النظرية الروحية ، وواضعها وزعيمها المستر « تايلور » الإنجليزي .

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) سوبرمان .

وهو الذي عَرَّف الدين بأنه : « الإيمان بكائنات روحية تسيطر على الكائنات المادية » .

والقسم الثاني من علماء تطور الأديان : اعتقدوا بأن الباعث على التدين هو الخوف من غضب آثار الطبيعة ، كالشمس ، والرعد ، والبرق ، وقالوا : إن الذين عبدوا هذه الأشياء إنما عبدوها ليأمنوا شرها ووبالها ، فسميت نظريتهم بالطبيعية ، وكان التعريف بالدين عندهم أن قالوا : الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه ، والقائد الأعظم لأصحاب هذه النظرية هو « ماكس موللر » الألماني المتوفى سنة ١٩٠٠ .

والقسم الثالث : هم الذين اعتقدوا أن المجتمع هو الذي دفع بالإنسان إلى أن يتخذ ربًّا خاصًّا به ، يرجو منه الخير .

وأن كل قبيلة كانت تعتقد أنها انحدرت من إله معين ، أو اتصلت بصلة القرابة إلى حيوان أو جماد أو نبات ليكون له إلهًا يحفظه أو يحفظ قبيلته من كل سوء ، أو يجلب له كل خير .

وسموا هذه الآلهة بـ« الطوطم » وجعلوها ثلاثة :

١- طوطم القبيلة .

٢- وطوطم الجنس من رجال ونساء .

٣- وطوطم الفرد الخاص .

وواضع هذه النظرية هو « دوركايم » الفرنسي المتوفى سنة ١٩١٧ وهو أحد أساتذة الدكتور طه حسين ، وقد تلقى عليه الدروس في باريس .

وتعريف الدين عنده أن يقول : الدين مجموعة أشياء متماسكة من العقائد والعبادات المتصلة بالأشياء المقدسة ، بحيث تؤلف هذه المجموعة كل من يؤمن بها في وحدة متصلة .

وأصحاب هذه النظريات الثلاث قد جردوا الدين من الطابع السماوي ، وجعلوه وضعًا إنسانيًا بحتًا ، ولذلك ظلوا ينتظرون ضعف سلطانه ، وجرثومة هذا الداء هي : مذهب التطور .

● مذهب التطور

هذا المذهب أضر المذاهب الفكرية الحديثة على الأديان الكتابية كلها ، ويجب على الداعية أن يلم إلمامة متقنة بما قال العلماء الطبيعيون والدينيون عن هذا المذهب .

يقول الدكتور أحمد أمين : «لقد توسع كثير من العلماء في تطبيق مذهب التطور على كثير من الأشياء ، فطبقوه على النظم الاجتماعية ، وأشكال الحكومات ، وعلى كثير من فروع العلم ، وعلى الفلسفة ، والدين»(١) . وإن صح تطبيق المذهب على كثير من المجالات ، فإنه لم يصح تطبيقه على الدين وعلى الإنسان . وقد بدأت نظرية التطور تتوسع على لسان «شارل داروين» وتلاميذه منذ القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث قالوا :

إن أنواع الأحياء تتحول من النشوء إلى الارتقاء ، لأنها ترجع إلى أصل واحد ، وإنما تتعدد الفروع بعوامل الطبيعة . وقالوا :

إن الإنسان والقرد من أصل واحد ، وإنما ارتقى وتهذب حتى بلغ المستوى الحاضر .

لقد قام بإبطال هذه النظرية عدد كبير من العلماء الطبيعيين والدينيين بالأدلة العلمية ، ومع ذلك ظلت النظرية تنتشر في العالم حتى كادت تحل محل العقيدة ، فتسرب منها الشك إلى صحة الكتب الدينية .

ومن أعلام الإسلام الذين ردوا عليها : السيد جمال الدين الأفغاني في رسالة سماها «الرد على الدهريين» ، وأحسن كتاب وقفت عليه في الرد على هذه النظرية ، هو كتاب الأستاذ عباس محمود العقاد الذي سماه «الإنسان في القرآن» حيث قال في تمهيد الكتاب :

---

(١) علم الأخلاق ص ١٢٦ .

Obeikandi.com

«وفي الصفحات التالية كتابان في كتاب وجيز، نبدأهما بعقيدة القرآن في صفحات، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الإنسان في مذاهب الفكر والعلم، أو مذاهب الحس والخيال».

ثم قال في صلب الكتاب: «وبعد ـ فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التي قوبل بها مذهب التطور في الغرب وبلاد الشرق العربي، نحسب أننا أتينا فيها على كل رأي من آراء الباحثين الدينيين والعلميين في هذا الباب»، ثم قال:

«نقول: إن مذهب التطور أيًّا كان تفسيره، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين، أو إنكار الخالق، أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير.

وليس في القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعي، لأن خلق الإنسان من الطين لا ينفي التحول إلى غير الطين، ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب، وإنما نعلم من القرآن أن الله خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين.

وحذر العقاد علماء الدين أن يعيدوا مثل الغلطة التي سبقت لبعضهم في التصدي للمذاهب العلمية، في مثل تحريم القول بدوران الأرض حول الشمس، كأن وجود الخالق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك، والقرآن يقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

وإذا أخطأ من يقحم القرآن في تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها، فمثله في الخطأ من يقحم القرآن في تحريمها، وهي بين الظن والرجحان، وبين الأخذ والرد في انتشار البرهان الحاسم من بينات العقل ومشاهدات العيان، وقد أخطأ من حرموا القول بدوران الأرض وهو أثبت من وجودهم على ظهرها، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهي إحدى حقائق العيان».

لقد سمعت بكتاب للأستاذ محمد قطب في هذا الموضوع تحت عنوان «التطور والثبات» وأنه قد وَفَّى الموضوع حقه من الوجهة العلمية والوجهة الدينية ، ولم أقف عليه إلى وقت إخراج هذه الطبعة الثالثة ، ولا زلت أطلبه .

فعلى الداعية أن يطلب الكتاب ليتنور به .

● تأويل النصوص وشروطه عند العلماء

أقول : إن علماء الإسلام قد أجمعوا على تأويل النصوص الشرعية عند تعارضها مع الحقائق العلمية بشروط يجب مراعاتها قبل التأويل ، قال القاضي ابن رشد في «فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال» :

«إن ههنا ظاهراً من الشرع لا يجوز تأويله ، فإن كان تأويله في المبادئ فهو كفر ، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة ، وههنا أيضًا ظاهر يجب على أهل البرهان تأويله ، وحملهم إياه على ظاهره كفر ، وتأويل غير أهل البرهان له وإخراجه عن ظاهره كفر في حقهم أو بدعة .

ومن هذا الصنف : آية الاستواء ، وحديث النزول ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في السوداء إذ أخبرته أن الله في السماء : «أعتقها فإنها مؤمنة» إذ كانت ليست من أهل البرهان .

والسبب في ذلك أن الصنف من الناس الذين لا يقع لهم التصديق إلا من قبل التخيل ـ أعني أنهم لا يصدقون بالشيء إلا من جهة ما يتخيلونه ـ يعسر وقوع التصديق لهم بموجود ليس منسوبًا إلى شيء متخيل ، ويدخل أيضًا على من لا يفهم من هذه السنة إلا المكان ، وهم الذين شدوا على رتبة الصنف الأول قليلاً في النظر باعتقاد الجسمية ، ولذلك كان الجواب لهؤلاء في أمثال هذه أنها من المتشابه ، وأن الواقف في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:٧) .

أي : إلا الله . وأهل البرهان ـ مع أنهم مجمعون في هذا الصنف أنه من المؤول ـ فقد يختلفون في تأويله وذلك بحسب مرتبة كل واحد من معرفة البرهان»[1] .

وقال ابن سينا : إن الشرع خطاب للجمهور كافة ، لذلك يجب أن يكون على ما يفهمون ، ولو كلف الله رسولاً أن يلقي حقائق الأمور إلى الجمهور ، لتسارعوا إلى العناد واتفقوا على أن ما يدعون إليه باطل أصلاً ، لهذا اتفق الفقهاء على أن النص إذا خالف صريح المعقول ، وجب تأويل النص .

«قلت» : التأويل لابد منه لكن ، فليكن على الشروط المذكورة آنفًا .

● الإنسان بين الإيمان والإلحاد

الإيمان هو التصديق بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والجزاء بالجنة أو النار .

والإلحاد هو الإنكار ، أو الطعن والشك في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فالإيمان شُعَبٌ وأجزاء يكمل بعضها البعض الآخر ، ومن آمن بالله وأنكر نبيًا من أنبيائه أو ملكًا من ملائكته ، أو كتابًا من كتبه ، فهو ملحد ، كالشيطان الذي آمن بالله وكفر بآدم نبي الله ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤) .

وكاليهود الذين آمنوا بالله وبعض رسله وملائكته ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٩٨) .

ومن آمن بالله وبواحد من رسل الله دون الآخر ، فهو كافر ملحد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ

---

(١) فصل المقال ص ٢٥ .

وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(النساء: ١٥٠، ١٥١) .

ومن آمن بالله وأنكر البعث بعد الموت فهو كافر ، كالدهريين ، الذين قالوا : ﴿ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ (الجاثية: ٢٤) أو ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٩) .

إن الإلحاد لم يزل يصارع الإيمان منذ خلق الله إبليس اللعين وآدم عليه السلام ، ولم يزل يظهر في مختلف الأشكال والمظاهر إلى يومنا هذا .

فيجب على الداعية أن يستعد استعدادًا كاملاً للرد على الإلحاد بكل الوسائل : النقلية والعقلية .

إن الملاحدة في هذا العصر أرادوا أن يتخذوا من العلم الحديث والكشوفات العلمية الحديثة سلاحًا مدمرًا للدين والتدين .

فعلى علماء الدين أن يدرسوا الحقائق العلمية ، لكي يستطيعوا الجمع بينها وبين العقائد الدينية .

● آدم أبو البشر هو الإنسان الأول

لقد اتفقت الأديان السماوية كلها على أن أول إنسان خلقه الله تعالى من تراب ، ثم قال له : كن إنسانًا ، فكان على أحسن تقويم ، ومنه خلق الله أنثاه زوجًا له ، ليسكن إليها ، ثم بث الله منهما رجالاً كثيرًا ونساء .

ولقد اتفقت الأديان السماوية الكبرى على تسمية هذا الإنسان الأول باسم هو «آدم» كما أطلقت على أنثاه اسمًا آخر هو «حواء» .

وليس هذين الاسمين سوى وصف لون للمادة الأرضية التي خلق الله منها هذا الإنسان .

فكلمة آدم : صفة للأدمة ، وهي سواد ضارب إلى الحمرة ، أو السمرة وفي الحديث : «أراني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال» (متفق عليه) .

وكلمة حواء : صفة للأدمة أيضًا ، وهي مؤنثة آدم من غير لفظه ، والكلمة مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ (الأعلى:٥) .

فكلمة أحوى مذكر ، ومؤنثها : حواء ، وهي صفة لما هو ضارب إلى الحمرة أو السمرة ، فقد أثبت الدين السماوي هذين الاسمين للإنسان الأول وأنثاه ، وكل من يحاول نفي هذا الإثبات باسمين آخرين مجهولين فإنما يريد أن يبدل علمًا بجهل ، وهدى بضلال كمن يبدل إنسانًا بقرد .

فقد امتاز الإنسان منذ وُجِدَ على ظهر الأرض : امتاز عن سائر أشباهه بالعقل ، والقول ، والتفكير ، والتدبير .

فهو بلا ريب : سيد الكائنات على هذه الكرة الأرضية ومصداقه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء:٧٠) .

وهذه الميزة هي التي جعلته موضعًا لتكليف الأوامر الإلهية والنواهي الربانية ، وهي التي جعلته مكانًا لاصطفاء الرسل والأنبياء .

● الإنسان بين العلم والدين

لقد خلق الله الإنسان مفطورًا على حب المعرفة وطلب العلم ، ولقد بدأ في السؤال عن كل شيء يراه ويحس به وجعل يطلب الكشف عنه ، بدأ يفعل هذا بأبسط الأشياء حتى تركب العلم وتراكم وارتقى إلى ما هو عليه اليوم ، كل ذلك بعناية الله وهدايته : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٣١) .

وكذلك خلق الإنسان مفطورًا على الاعتقاد بوجود خالقه وخالق هذا الكون ، وعلى اعتقاد وجوب عبادة هذا الخلق بعناية الله وهدايته : ﴿ فَأَقِمۡ

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٣٠) .

وإذا اختلف الناس في مراتب العلوم ومرافق الحياة ، فإنهم لم يختلفوا في الأخذ بأسبابها ، ولايزالون يتفاوتون فيما حصلوا وفيما يحصلون عليه من العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٧٦) .

وإذا أخطأ بعض الناس الطريق الصحيح لعبادة الله تعالى ، فإنهم لم يختلفوا في ضرورة الإيمان بالخالق وعبادته إلا قليل منهم .

لذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين لتوجيههم الناس إلى الدين الصحيح : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران:٨٣) .

وصفوة القول : إن العناية الإلهية التي أوجدت الإنسان وجعلته سيداً عاقلاً ظلت تمده بمدد السماء إلى الأرض في كل شيء ، ولم تزل تساعده على معرفة الخير والشر ، والسعادة والشقوة ، في المعاش والمعاد : ومصداقه قوله تعالى : ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة:٣٨) .

● حاجة الإنسان إلى هدى الله في كل شيء

لقد حقق الإمام ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والنحل» : «أن الإنسان لا يمكن أن يهتدي إلى معرفة العقاقير لعلاج الأمراض ، ولا إلى معرفة نجوم السماء ودورانها ، ولا إلى اللغات وحروفها ، ولا إلى أدوات الحرث والحصاد والطحن والعجن ، ولا إلى تربية المواشي الداجنة ، ولا إلى استخراج الأدهان ، ولا إلى دق الكتان والقطن وغزله وحياكته ، ولا إلى البناء وهندسته ، كل ذلك وأضعاف أمثاله : لا يمكن أن يهتدي إليه الإنسان إلا

بالتعليم ، فوجب أن يكون هناك إنسان علمه الله ذلك ابتداء ، دون معلم ولكن بوحي حققه عنده» ـ انتهى بتصرف .

ثم جعل الله العقل سبيلاً إلى التفكير والتدبير في المحسوسات ، فيتدرج منها إلى المعقولات ، ولم يجعل الله العقل سبيلاً إلى إدراك المغيبات مما وراء الحس ، وما وراء الموت ، بل جعل الوحي سبيلاً إلى ذلك .

فكما جعل الله الماء مددًا من السماء إلى الأرض لاستخراج نبات الأرض ..

وجعل العقل مددًا من السماء إلى الأرض لاكتشاف الفوائد الطبيعية .

وجعل الوحي مددًا من السماء إلى الأرض لاكتشاف المغيبات ..

الوحي خاص بالأنبياء والمرسلين ، وهو لا يخطئ أبدًا ، والإلهام جزء من أجزاء الوحي وهو عام لسائر العقلاء والمفكرين ، ولكنه يخطئ ويصيب ، وكل ما نزل به الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء يطلق عليه دينًا مشروعًا : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الشورى:٢١) .

وكل ما نزل به الإلهام من الله تعالى إلى العقلاء يسمى : علمًا .

العلم والإلهام كلاهما عطية الله وهبته : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء:٨٥) .

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

● حاجة الإنسان إلى من يدعوه إلى الخير

الخير والشر من قضاء الله وقدره الذى امتحن به عباده لقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥) .

ولحديث : «أن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى».

وقرين الخير : السعادة والجنة ، وقرين الشر : الشقاوة والنار .

والحكمة الإلهية في خلق الشر التمييز بين الأشياء ، فلولا وجود الشر لما عرفنا فضل الخير وقيمته ، ثم إن الله تعالى خلق بني آدم على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : جعلهم الله أبرارًا وأخيارًا واختارهم لفعل الخيرات وحببها إليهم كالأنبياء والمرسلين والصالحين الذين جعلهم الله أئمة في الخير يقتدي بهم الناس ، أولئك الذين ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (البقرة:١٠٥) ، ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٤٧) ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النور:٤٦) ، إلى مثل ذلك من الآيات .

الصنف الثاني : جعلهم الله أشرارًا وحبب إليهم فعل الشرور كأمثال نمروذ وفرعون وأبى جهل الذين جعلهم الله أئمة في الكفر يدعون إلى الشر ولا يدعون إلى الخير أبدًا ولا يستجيبون لداعي الخير ، وينطبق قوله تعالى عليهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(البقرة:٦،٧) .

الصنف الثالث : هم الذين كتب الله لهم الاختيار بين الانضمام إلى من شاءوا من الصنفين المذكورين وهم المخاطبون بقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف:٢٩) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣) ، وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد:٧-١٠) .

وهؤلاء هم الذين يوعظون ويدعون إلى الخير ليختاروا ما يشاءون فينتفع بالإرشاد ممن كانوا قد اختاروا الميل إلى الصنف الأول وفيهم يقول القرآن : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات:٥٥) ، وقال في الذين انتفعوا بالإرشاد : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩) ، كما قال في الذين لم يستجيبوا للوعظ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ (طه:١٢٤-١٢٧) .

إذا علم الداعية هذه الأصناف ، علم أنه إنما يجب عليه البلاغ كمن قال : ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٤) .

على الواعظ أن يتذكر دائمًا أنه ليس مسئولاً عن هداية الموعوظ لقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾(الغاشية:٢١،٢٢)، وقوله : ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩) ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يوسف:١٠٣) ، وقوله : ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ (السجدة:١٣) .

● فوائد التدين للإنسان

إن دوام صلة العبد بخالقه أفضل ما يتمتع به المتدين الصحيح ، ألا ترى أن مواطن دولة من دول العالم يتمتع بصلته برئيس دولته وحكومته ، فما قيمة ما يربح الإنسان في دنياه إذا كان قد خسر الاتصال بخالقه وخالق الكون بأسره ؟

ولا يخسر الإنسان شيئًا إذا كان قد ربح في اتصاله بخالقه وخالق الكون أجمع ، فالدين هو مفتاح صلة العبد بربه وخالقه .

ثم إن علماء الأخلاق قد أجمعوا على أنه لا رادع ولا وازع أقدس من الدين ، لأن الإنسان إذا ابتعد عن رقابة القانون واختفى عن أعين الناس في مسمعهم ومرآهم ، ولم يكن له رادع مقدس في نفسه ، ولا رقيب يهيمن على ضميره : اقتحم من المناكر والقبائح ما لا ينقضي منه العجب ، لذلك أجمع العلماء على أن قواعد الأخلاق وأحكام القانون لا يثبت لها أثر في

النفوس ، ولا تسيطر على الضمائر : ما لم تكن مستمدة من الدين ، كما قرروا أنه لا يكفي العقل وحده ـ للتغلب على القوى الشهوانية والقوى الغضبية ، لأن العاطفة كثيراً ما تغلب العقل والعلم ، ولأن النفس الإنسانية مفطورة على الأثرة والأنانية والظلم ، إلا إذا منع مانع ، كما قال الشاعر :

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم

وليس هناك ما يردع العقل والعاطفة سوى الدين المهيمن على الضمائر ، ثم إن النفس الإنسانية مطبوعة على النسيان ، والإنسان ينسى السرور والحزن ، وينسى اللذة والألم ، وكذلك ينسى الحق والباطل .

بعث الله به ـ أي بالدين ـ الأنبياء والمرسلين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ، فالدين الصحيح هو الذي يعالج هذه القضايا كلها خير معالجة .

وأفضل هذه الأديان هو ما ختم الله به الأديان السماوية : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران:١٩) .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران:٨٥) .

• التعريف بالوحي

للعلماء مذاهب مختلفة فى التعريف بالوحي ، وأحسنها ـ عندي ـ تعريف السيد رشيد رضا في « الوحي المحمدي » حيث قال :

إن الوحي : الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يُوَجَّه إليه ، بحيث يخفى على غيره .

والوحي : يكون بطريقة من الطرق التي يكلم الله بها من يشاء من عباده ، وهذه الطرق مجموعة في الآية الكريمة : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى:٥١) .

وطرق الوحي المأخوذة من هذه الآية تتلخص فيما يأتي :

أولاً : أن يأتي الملك حامل الوحي إلى النبي خفيًا ، فيلقي الكلام في نفسه كما في الحديث « إن روح القدس نفث في روعي» أي في قلبي وعقلي .

ثانيًا : أن يأتي الملك بصورة البشر فيتمثل لمن يكلمه الله ، فيراه بشرًا سويًا ، فيكلمه فيسمع منه ، أو يأتي بصورة الملك كما يتمثل جبريل للنبي محمد ﷺ .

ثالثًا : أن يسمع كلامًا ولا يرى المتكلم ، كما سمع سيدنا موسى نداء ربه من جانب الطور الأيمن في البقعة المباركة ، ولم يره ولما قال له : ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ (الأعراف:١٤٣) .

ويمكن أن يفهم العاقل معنى الوحي بقياسه على حديث النفس ، وانتقاله من قلب إلى قلب ، ومن روح إلى روح[1] ، وهكذا مثلاً تفاهم الدواب والبهائم مع بعضها من غير لفظ ولا حرف ، وكذلك فهم الإنسان لغة الدواب ، وقد جاء في القرآن الكريم أن النبي سليمان كان يفهم لغة البهائم والحشرات والوحوش ، وقد فهم كلام النملة القائلة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا ﴾ (النمل:١٨،١٩) .

وكذلك فهم كلام الطير (الهدهد) القائل : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (النمل:٢٢-٢٤) .

وبهذا المثال يفهم العاقل إمكان انتقال الوحي من الملك إلى النبي .

---

(١) راجع : فلسفة النبوة والأنبياء ـ للمؤلف .

● النبوة ، والنبي ، والأنبياء

النبوة : خبر السماء من عالم الغيب ، وهي أيضًا تلقى النبي الوحي بالانسلاخ من الحالة البشرية إلى الملائكية ، في لمحة من اللمحات يحصل له فيها شهود الملأ الأعلى ، وسماع الكلام الرباني .

والنبي : إنسان يتلقى الوحي من الله ، يأمره بشرع أو يعلمه صناعة ، وإذا كُلِّف هذا النبي بالتبليغ كان رسولاً .

والرسول : هو النبي الذي أنزل الله عليه كتابًا أو شريعة ، وكُلِّف بالتبليغ وكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً ، والفرق بينهما العموم والخصوص ، واعترض بعضهم على هذا فزعم أن كل نبي رسول وكل رسول نبي .

والصواب التفريق لما ورد في حديث الشفاعة الذي وصف نوحًا بأنه أول الرسل ، وقد سبقه آدم وشيث وإدريس وهم من الأنبياء .

وكذلك الحديث الوارد في عدد الأنبياء وعدد المرسلين ـ فيما رواه الطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه قال : « قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا ، قلت : كم المرسلون منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر ، قلت : كان آدم نبيًّا ؟ قال : نعم ، كلمه الله وخلقه بيده » .

● الخلاف في عدد الأنبياء

هذا ، وقد امتنع بعض العلماء عن تحديد الأنبياء والمرسلين في عدد معين ، لأن القرآن لم يذكر العدد تصريحًا أو تلويحًا .

أما حديث أبي ذر السابق فقد عورض برواية أخرى أقل من هذا عددًا ، لذلك قال بعض العلماء إنه لا يجب علينا حصرهم في عدد معين ، ولا يمكن معرفتهم جميعًا .

حتى ولو بحثنا فلا نتمكن من الإحاطة بهم وحصرهم في عدد وإنما يجب علينا أن نؤمن بأنهم كثيرون ، وأنهم مع كثرتهم أتوا من عند الله ، ولم يختلفوا في جوهر رسالتهم ، كما كان أصحاب النظريات الفلسفية يختلفون .

obeikandi.com

• وحدة الأديان في رسالات السماء

إن دعوات الأنبياء والمرسلين ـ مع كثرة عددهم ، واختلاف أمكنتهم وأزمنتهم ، وعدم لقاء بعضهم بعضًا ، وعدم معرفة بعضهم بعضًا ـ كانت واحدة .

الدعوة واحدة وإن كانت مختلفة الوسائل متباينة في الأوضاع ، تبعًا لاختلاف الأحداث والأمكنة والجهات فإنها متحدة في المبادئ والغايات ، وإنما تعددت لتعدد البيئات ـ وطبقات من أرسل إليهم من الأمم والأجناس .

وإذا وقع الخلاف بين أهل الأديان السماوية ، فإنما نشأ الخلاف بين أتباعها من فعل الشهوات والأهواء قال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة:٢١٣) .

وعلى هذا المعنى يفهم العاقل سبب اختلاف اليهود والنصارى فيما بينهم ، إذ لم يعترف اليهود بنبوة عيسى ولا برسالته ، كما قال القرآن وشهد به الواقع : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (البقرة:١١٣) .

ولا يتفق اليهود والنصارى على شيء ، إلا على العدوان على الإسلام : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٠) .

أما الإسلام فقد جاء مصدقًا لما بين يديه من الأديان السماوية قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة:٤٨) .

وكان القرآن موسوعة كبرى للأديان السماوية ومعينًا فياضًا لأخبار الأنبياء وأممهم من جميع أجناس البشر .

وقرر القرآن بأن رسالات السماء واحدة ، لأن نبوة الأنبياء سلسلة متصلة الحلقات ، ولهذا أوجب الإسلام الإيمان بهم جميعًا ، ويمكن رؤية وحدة رسالات الأنبياء جليًا في الزوايا الآتية :

أولاً : وحدة العقيدة والمبدأ وأدلتها في القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦) .

ثانيًا : وحدة الإنسانية رغم اختلاف الألسنة والألوان وأدلتها في القرآن كثيرة منها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣) .

ثالثًا : وحدة الوحي السماوي - رغم كثرة من أوحى إليهم - وأدلتها كثيرة منها : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١٦٣-١٦٥) .

رابعًا : وحدة المصير ، وأدلتها كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (آل عمران:٨٣) .

خامسًا : وحدة حالة المدعوين المنكرين ، وأدلتها كثيرة ومنها قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الذاريات:٥٢،٥٣) .

سادسًا : وحدة انتصار المرسلين على عدوهم ، وأدلتها كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣) .

● **الأحجار الأساسية لدعوة الرسل كلهم : الصبر والحكمة والتبصر**

اصطفى الله من عباده الأنبياء ، ثم اصطفى من الأنبياء الرسل ، ثم اصطفى من الرسل أولي العزم الذين يُقْتَدَى بهديهم في الدعوة إلى الله تعالى ، وقد أمر الله نبيه محمدًا أن يقتدي بهم في الصبر والثبات وعدم الاستعجال واستعمال الحكمة والتبصر في الدعوة ، قال في الصبر والثبات : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (الأحقاف:٣٥) .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(الأنعام:٣٤) .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف:١١٠) .

وأما استعمال الحكمة في تبليغ الدعوة فقد اشترك فيه جميع الأنبياء والمرسلين ، وكان القرآن يذكر كل نبي ورسول مقرونًا بالحكمة والحكم في تبليغ الدعوة ، قال تعالى : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾

(الأنعام:٨٩) .

وسمى الله حكمة النبي إبراهيم حجة في الأنعام بعد أن قرر إيتاءه وأهله الحكمة في سورة النساء : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام:٨٣) .

﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

(النساء:٥٤) .

وقال في شأن سيدنا يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢) .

وقال في وصف سيدنا موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (القصص:١٤) .

وفي قصة داود وسليمان : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ (البقرة:٢٥١) .

وفي سليمان قال : ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (الأنبياء:٧٩) .

وقال في شأن سيدنا عيسى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران:٤٨) .

وقال في شأن سيدنا لقمان : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ (لقمان:١٢).

وقال في شأن سيدنا محمد ﷺ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران:١٦٤) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة:٢) .

وقال القرآن بعد سرد الأحكام والشرائع وبيان فوائد المأمورات بها وفساد المنهيات عنها ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الإسراء:٣٩) .

وإذا كانت الحكمة أداة من أدوات الرسل ، فعلى ورثة الرسل من الدعاة أن يعرفوا تمامًا ما هي .

● ما هي الحكمة ، وكيف تستعمل في الدعوة ؟

قال الراغب : إن الحكمة في تعارف الشرع اسم للعلوم العقلية ، ولقد قرن القرآن بين الكتاب والحكمة في كثير من الآيات ، وجعل الكتاب لما يدرك من

جهة النبوات ، وجعل الحكمة لما يدرك من جهة العقليات ، وجعل الاثنين وحيًا من الله ، وكل واحد منهما يحتاج إلى الآخر ، لهذا يقول القرآن : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾

(البقرة:٢٦٩) .

والحكمة أخص من الحكم ، فكل حكمة حكم ، وليس كل حكم حكمة .

وقيل : إن الحكمة اسم لكل علم حسن وعمل صالح ، وهو بالعلم العملي أخص بالعلم النظري ، وفي العمل أكثر استعمالاً منه في العلم ، وإن كان العمل لا يكون محكما من دون العلم به ، ومنها يقال : أحكم العمل إحكامًا .

ونسبة العلوم إلى الحكمة كنسبة الأعضاء إلى البدن ، ونسبة الرئيس إلى المرؤوسين ، ونسبة الأولاد إلى الأم . اهـ . كلام الراغب نقلاً من كتاب « الذريعة إلى مكارم الشريعة ».

أما الشهرستاني فقد قسم الحكمة إلى قولية ، وفعلية .

وأفاض الأستاذ أحمد فهمي في التعليق على هذا التقسيم فقال :

إن الحكمة إما نظرية تهدف إلى الغاية التي هي الحق .

وإما عملية ترمي إلى الغاية التي هي الخير .

ثم أوضح أن النظرية ثلاثة أقسام :

الأول هو : العلم الطبيعي .

والثاني هو : العلم الرياضي .

والثالث هو : العلم الإلهي .

وكل ذلك لحصول رأي واعتقاد يقيني بالموجودات .

أما العملية ، فهي أيضًا ثلاثة أقسام :

الأول : خاص بتدبير الإنسان لأخلاقه وأفعاله ، ليكون سعيدًا .

والثاني : خاص بتدبير شئونه مع شريكه في كل ميدان .

والثالث : خاص بتدبير الشئون العامة في السياسة والاجتماع .

« قلت » : يستفيد الداعية من شروح الحكمة ما يتخذ منه دعامة لدعوته على وجه العموم ، أما على وجه الخصوص ـ فإنه يستفيد من الحكمة القولية ضرب الأمثال والأشعار الوعظية لحديث : « إن من الشعر لحكمة » .

وكذلك يستفيد من الحكمة العملية كل تدبير من شأنه أن يجعل الداعية قدوة حسنة في أفعاله وأخلاقه ، ويجعله محبوبًا عند أهله ، مسموع القول ، متبوع الرأي[1] .

ومن مقومات دعوات الرسل وأحجارها الأساسية **الدعوة على بصيرة** ، وهي ثلاثة :

١- الدعوة على البصيرة من الداعي نفسه فيما يدعو إليه .

٢- دعوة من يدعي على بصيرة فيما يدعى إليه .

٣- والدعوة على بصيرة في أحوال الدعاة والدعاة السابقين .

أما دعوة الداعي على بصيرة في نفسه ، فهي أن تتبلور الدعوة في ذهن الداعية ، فيعرف أغراض الدعوة ووسائلها وغاياتها ، فيعرف الغرض من الدعوة نفسها ، ويعرف العلاقة بين الدعوة وبين المدعو إليها ، هل هذه الدعوة متعلقة بالخالق أو بالمخلوق ، فردًا أو جماعة ، ويمكن حصر هذه المسائل في ثلاث دوائر :

الدائرة الأولى : إصلاح علاقة الإنسان بربه : وتدور هذه العلاقة حول الاعتقاد بألوهية الله وربوبيته وعبادته وتوحيده في ذلك كله ، وتسليم الأمر له

---

(١) وليس معنى ذلك أن يعمل للذكر الحسن أو ليحبه الناس ، وفي الإحياء للغزالي : قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك عند قومك؟ قال : حسنة . قال كعب : إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه ـ ٢/٢٧٤ .

والخضوع لإرادته والإذعان لقضائه ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه في شريعته المنزلة على أنبيائه ورسله .

الدائرة الثانية : إصلاح الإنسان نفسه بنفسه : وتدور هذه العلاقة حول إصلاح السلوك والأخلاق ، وتنظيم أسباب الحياة والمعيشة على المنهج الذي وضعه الخالق المدبر ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى:٢،٣) ولم يهمل خلقه بغير هداية ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٤) .

الدائرة الثالثة : إصلاح المجتمع : وهذه تدور حول تنظيم علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، وعلاقات الجماعات بعضها ببعض ، وعلاقات الدول والحكومات برعاياهم وأتباعهم وجيرانهم من الدول الأخرى والحكومات .

ويمكن حصر هذه المسائل كلها في أمرين اثنين ، وهما : الإيمان والعمل الصالح ، فإن الله وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات في عدة آيات من القرآن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (الحج:١٤،٢٣) ، (محمد:١٢) .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : قل لي في الإسلام قولاً أعمل به فأدخل الجنة! فقال له النبي : « قل آمنت بالله ثم استقم »[1].

أما دعوة المدعو على بصيرة فيما يدعى إليه فتكون بتقديم البينات له ، والبراهين الواضحة التي لا غموض فيها ولا التواء ، مثل ما قال تعالى في شأن التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص:٤٣) .

وقال موسى لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ (الإسراء:١٠٢) .

---

(١) متفق عليه .

وقال في شأن سيدنا محمد ﷺ وفي شأن القرآن: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾(الأنعام:١٠٤).

وقال أيضًا: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٠).

وقال أيضًا: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٣).

وقال أيضًا: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ (يوسف:١٠٨).

أما الدعوة على بصيرة فمن أحوال الدعاة والمدعوين الذين خلوا من قبل، فتكون بالإحاطة بأخبار من سبقوا من الدعاة، وما لاقوه من قومهم من العناد.

ولهذا كان القرآن يقص على سيدنا محمد أخبار من قبله من الرسل وقال: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود:١٢٠).

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١).

فالقرآن هو الموسوعة الكبرى لأخبار جميع الرسل والأنبياء الذين مضوا، وقد اهتم بالموضوع تحت عنوان قصص الأنبياء.

وجاء علماء الإسلام وتوسعوا فيه وسموه: «الملل والنحل» اصطلحوا اسم الملل للأديان السماوية، والنحل للأديان الوضعية، واستقصوا جميع الأديان، والأهواء، والآراء، والإلحاد، والفلسفات والمذاهب في النحل ليكون الداعية على بصيرة من أمره، ثم ليعلم أن الدعوة إلى الله سبيل مفروش بالأشواك والعقبات، ليس محفوفًا بالأزهار والرياحين، ولا يستعجل ولا ينتظر الجزاء في الدنيا، ولكن الجزاء في العقبى.

* * *